

الباب الثاني

قبل أجمنون

الفصل الأول

شليمان

في عام ١٨٢٢ ولد في ألمانيا صبي قدر له أن يكتب بمعوله صفحة من أروع صفحات علم الآثار في القرن التاسع عشر . وكان والده مولعاً بالتاريخ القديم ، فنشأه على حب قصص هومر عن حصار طروادة ، وتجوّال أديسيوس ، « ولشد ما كان يحزنتني أن أسمع منه أن طروادة قد دمرت عن آخرها تدميراً تاماً ، وأنها بحيث من الوجود دون أن تخلف وراءها أثراً يدل عليها » (١) . ولما بلغ هنريخ شليمان الثامنة من عمره وفكر في الأمر تفكيراً أوفى من تفكيره الأول أعلن أنه سيهب حياته للكشف عن المدينة المفقودة ، وفي العاشرة من عمره عرض على أبيه قصة لاتينية عن حرب طروادة . وفي عام ١٨٣٦ غادر المدرسة بعد أن حصل فيها علماً أرقى مما تطيقه موارده ، واشتغل صبيّاً عند بدال ، وفي عام ١٨٤١ خرج من همبرج خادماً على ظهر سفينة تجارية مسافرة إلى أمريكا الجنوبية ، وبعد اثني عشر يوماً من مغادرة السفينة الميناء غرقت ، وظل بحارتها تسع ساعات في قارب صغير تتقاذفهم الأمواج حتى ألقت بهم على سواحل هولندا . واشتغل هنريخ كاتباً ، وكان يكسب من عمله مائة وخمسين ريالاً أمريكياً في ثلث عام ، ينفق نصفها في شراء الكتب ويعيش على نصفها الآخر وعلى أحلامه ،

وأثمر ذكاؤه وجده ثمرتها الطبيعية ؛ فلما أن بلغ الخامسة والعشرين كان تاجراً له مصالح مالية في ثلاث قارات ؛ ولما بلغ السادسة والثلاثين أحس بأنه قد حصل من المال كفايته فاعتزل التجارة ووهب وقته كله لعلم الآثار . « لقد كنت وأنا في عمرة الأعمال التجارية دائم التفكير في طروادة أو فيما قطعته لوالدي من عهد علي أن أكشف عن آثارها(*) » (٢) .

وقد اعتاد في أثناء اشتغاله بالتجارة أن يتعلم لغة كل بلد يتجر معه ، وأن يكتب بهذه اللغة ما يتصل بأعماله في مفكرته اليومية (٣) . وبهذه الطريقة تعلم اللغات الإنجليزية ، والفرنسية ، والهولندية ، والأسبانية ، والبرتغالية ، والإيطالية ، والروسية ، والسويدية ، والهولندية ، والعربية . ثم ذهب إلى بلاد اليونان ودرس فيها لغة الكلام الحية ، وسرعان ما أصبح في مقدوره أن يقرأ اليونانية القديمة والحديثة بنفس السهولة التي يقرأ بها الألمانية . فلما تم له ذلك أعلن : « إنى لا أستطيع أن أعيش بعد الآن في غير أرض اليونان القديمة » (٤) . ولما أبت زوجته الروسية أن تغادر روسيا أعلن في الصحف رغبته في الزواج بيونانية ، ووصف بغاية الدقة كل ما يتطلبه في هذه الزوجة ، ثم اختار في السابعة والأربعين من عمره عروساً في التاسعة عشرة من بين الصور الشمسية التي أرسابت إليه . ولم يكد

(٥) وقد كتب سليمان يقول : « ولكنني أستطيع تعلم المردات اليونانية بسرعة حصلت على ترجمة يونانية حديثة ، إبول وفرچيني وقرأتها من أولها إلى آخرها ، وقابلت كل كلمة بأصلها في الأصل الفرنسي . فلما فرغت من هذا العمل عرفت على الأقل نصف ما يحتويه الكتاب من المفردات اليونانية ، وبعد أن كررت هذه العملية نفسها مرة أخرى عرفتها كلها ، أو كدت ، من غير أن أصبح دقيقة واحدة في البحث عن هذه المفردات في معاجم اللغة ... أما التمهيد اليوناني فلم أتلم منه إلا علامات الإعراب والأفعال ، ولم أضجم وقتي الثمين في تعلم قواعد اليونانية ، ولأنني رأيت أن التلاميذ بعد أن يلاخوا أمذاب ثمانين سنين أو أكثر منها يكفون في تعلم قواعد النحو اليوناني ، يخرجون من المدرسة وليس منهم من يستطيع أن يكتب خطاباً باللغة اليونانية القديمة دون أن يرتكب فيه مائة من الأغلط . ولهذا أيقنت أن الطريقة التي يتبعها المدرسون في تعليم تلك اللغة خاطئة من أولها إلى آخرها .. أما أنا فقد تعلمت اللغة اليونانية القديمة كما لو كنت أتلم لغة من اللغات الحية »

يرى صاحبة الصورة حتى تزوجها من قوره ، وتزوجها بطريقة الشراء القديمة دون أن يعنى بمعرفة حقيقة أمرها ، وطلب إليه أبواها ثمناً يتناسب مع ما يعرفان من ثرائه . ولما ولدت له زوجته طفلين ، لم يرض أن يعدهما إلا إلا مكرهما ، ولكنه كان في أثناء الاحتفال يضع نسخة من الإلياذة فوق رأسيهما ويقرأ منها مائة بيت بصوت عال . وسمى هؤلاء الأبناء أندروماك ، وأجمنون . وسمى خادميه تلامون Telamon ، وبلوپس Pelops ، وأطلق على بيته في أثينة اسم بلروفون Bellerophon^(٧) . لقد كان شليمان شيخاً افتتن بهومر إلى حد الجنون .

وفي عام ١٨٧٠ ذهب إلى الأرض المحيطة بطروادة - وهي الطرف الشمالى الغربى من آسية الصغرى - وأصر رغم آراء جميع العلماء في ذلك الوقت على أن طروادة بريام مدفونة تحت التل المسمى حصار لك . واستطاع بعد مفاوضات دامت عاماً كاملاً أن يحصل من الحكومة العثمانية على إذن بالحفر في هذا الموقع ، واستأجر ثمانين عاملاً وبدأ العمل . وكانت زوجته ، التى تحبه لما يتصف به من شذوذ ونزوات ، تشترك معه في كدحه في الأرض من مطلع الشمس إلى مغيبها . وظلت العواصف الثلجية تهب من الشمال طوال الشتاء وتقلد الثرى في وجهيهما ، وكانت الرياح تندفع بقوة من ثغرات كوخهما الضعيف فلا يستطيعان أن يحتفظا فيه بمصباح مضى أثناء الليل . « ولم يكن لدينا ما يدفئنا إلا تحمسنا لعملنا العظيم ألا وهو كشف طروادة »^(٨) .

ومر عام كامل دون أن تثمر جهودهما ثمرة ما . ثم أخذت فأس أحد العمال تكشف ضربة في إثر ضربة عن وعاء نحاسى كبير ، ولما فتح هذا الوعاء تكشف عن كنز مدهش ثمين مكون من تسعة آلاف تحفة مختلفة من الفضة والذهب . وكان شليمان ماكرراً فأخفى الكنز في لفاعه زوجته ، وصرف العمال على غير انتظار منهم لكى يستريحوا ، وأسرع إلى كوخه ، وأغلق

عليه الباب ، وبسط الكنز الثمين أمامه على المنضدة ، ووصل ما بين كل قطعة منه وبين فقرة في شعر هومر ، وحلى رأس زوجته بجمهرة قديمة وأرسل إلى أصدقائه في أوروبا يبلغهم أنه كشف عن « كنز بريام » (٩) : لكن أحداً منهم لم يصدقه ، واتهمه بعض النقاد بأنه وضع بنفسه الأشياء التي كشفها في المكان الذي استخرجها منه ، ورفع الباب العالى في الوقت نفسه قضية عليه يتهمه بالاستيلاء على الذهب من أرض تركية . لكن بعض العلماء أمثال فرشاو Virchow ، ودورپفلد Dörpfeld وبرنوف Burnouf هرعوا إلى موضع الحفر ، وحققوا أقوال شليمان ، ووصلوا العمل معه حتى كشفوا عن طروادة مدفونة بعد طروادة ؛ ولم تبق المشكلة القائمة بعدئذ هل كانت هناك طروادة أو لم تكن ، بل أصبحت محصورة في أى الطروادات التسع التي كشفت هي التي تطلق عليها الإلياذة اسم إليوس .

وفي عام ١٨٧٦ اعتزم شليمان أن يحقق ملحمة هومر من ناحية أخرى - وهي أن يثبت أن أجمنون كان هو أيضاً شخصاً حقيقياً . واسترشد في عمله بوصف هوسنياس القديم لبلاد اليونان(*) ، فاحفر أربعاً وثلاثين فجوة في ميسيني الواقعة في شرقي الپلورينيز . وقطع عليه الموظفون الأتراك عمله بأن طالبوه بنصف الكنوز التي كشفها في طروادة ؛ ولم يشأ هو أن يترك « كنز بريام » في تركيا مخفياً عن الأنظار ، فأرسله سراً إلى متحف اللولة في برلين ، وأدى للباب العالى خمسة أمثال ما طلبه من تعويض ، وواصل أعمال الحفر في ميسيني . وكان النجاح في هذه المرة أيضاً حليفه ، ولما أن أبصر عماله يحملون إليه هياكل بشرية ، وفخاراً ، وأقنعة ذهبية ، أبرق إلى ملك اليونان يقول إنه كشف قبرى أنزيوس وأجمنون (١٠) . وفي عام ١٨٨٤ انتقل إلى تيرينز Tiryns واسترشد في عمله هناك

(*) لقد طاف هوسنياس ببلاد اليونان في عام ١٦٠ م ووصفها في كتابه المسمى Periegestis أى الرحلة .

أيضاً بيوسنياس ، وكشف عن القصر العظيم وعن الأسوار الضخمة التي وصفها هومر (١١) .

ولسنا مبالغين إذا قلنا إنه قلما خدم أحد علم الآثار كما خدمه شليمان . لقد كان هذا الرجل متصفاً بعيوب فضائله ، ذلك أن حماسه كانت تدفعه إلى العجلة والتهور في عمله ، فأدى ذلك به إلى إتلاف كثير من الأشياء التي عثر عليها أو خلطها بعضها ببعض لكي يحقق بسرعة الهدف الذي كان يعمل لتحقيقه . يضاف إلى هذا أن الملحمين اللتين كانتا تهديانه في عمله قد أضلتهما فحسب أنه كشف عن كنز بريام في طروادة ، وعن قبر أجمنون في ميسيني . وارتاب العلماء في أنحاء العالم في تقاريره وظلت متاحف إنجلترا ، وروسيا ، وفرنسا زمناً طويلاً لا تصدق أن ما كشفه آثار قديمة بحق . وكان في هذه الأثناء يعزى نفسه بما ناله من مكانة عظيمة في عينه هو ، ويواصل الحفر بشاعة حتى أقعده المرض . ونحير في آخر أيامه هل يصلح إلى إله المسيحيين أو إلى زيوس إله اليونان الأقدمين ؛ وكتب إلى ابنه يقول : « إلى أجمنون شليمان أحب الأبناء أرسل تحياتي ، وإني ليسرني أنك ستدرس أفلو طرحس ، وأنت فرغت من زونفون وإني لأدعو أبانا زيوس وبلاس أثينة أن يميزاك من الصحة والسعادة ما يعادل جهودك مائة مرة » (١٢) . وتوفي عام ١٨٩٠ بعد أن أنهكه الكدح في الحر والبرد ، وقاسى ما قاسى من عداوة العلماء ، ومن حمى أحلامه التي لم تفارقه في يوم من الأيام .

لقد كشف شليمان - كما كشف كولبس - عن عالم أشد غرابة من العالم الذي كان يبحث عنه ، فلقد كانت هذه الجواهر أقدم بثبات السنين من بريام وهكيبيا Hecuba : ولم تكن تلك القبور قبوراً تريدنا ، بل كانت أطلال حضارة إيجابية قامت في أرض اليونان الأصلية ، قديمة قدم العصر المينوي في كريت ، ولقد حقق شليمان ، دون أن يعرف ، بيت هوراس

الذائع الصيت « لقد عاش قبل أجمنون كثيرون من الرجال البواسل » (*) .
وكلما توسع دوريفلد ، وملر Muller وتسونتاس Tsountas واستماتاكس
Stamatakis ، وولدشتين Waldstein ، وويس Wace في أعمال الحفر في
أرض الپلوپونيز ، وواصل غيرهم الحفر في أتكاف وفي جزائر عوبيه Euboea
وبوئيا Boeotia ، وفوسيس Phocis وفي تساليا ، تكشفت أرض
اليونان عن بقايا ثقافة قامت فيها في أزمنة ما قبل التاريخ . وفي هذه الثقافة
ارتقى الناس أيضاً من الهمجية إلى الحضارة بانتقالهم من حياة الصيد البدوية
إلى حياة الاستقرار والأعمال الزراعية ، وبإستبدال النحاس والبرنز
بالحجارة ، وبما يسرته لهم الكتابة والتجارة من وسائل التقدم . إن الحضارة
على الدوام أقدم مما نتصور ، وتحت كل شبر من الأرض نطوئه بأقدامنا عظام
رجال ونساء عملوا وأحبوا كما نعمل نحن ونحب ، وكتبوا الأغاني وصنعوا
الجميل من الأشياء ؛ ولكن أسماءهم وحيواتهم نفسها قد ضاعت على مر
الزمان الذى لا يحفل قط بالرجال والنساء .

(*) وكاد دوريفلد وفرشار يقنعانه في أواخر أيامه بأنه لم يكشف عن بقايا أجمنون
بل كشف عن جيل من الناس أقدم منه كثيراً . وبعد أن أظهر شليمان الشيء الكثير من الألم
المبرح تقبل قولها قبولاً حسناً وصاح قائلاً : « ماذا تفتن لان ؟ إذن نليس هذا جسم أجمنون ،
وليست هذه حلية ؟ فليكن ، ولنسمه إذن شلز Schulz ، وظلوا من ذلك الحين يتحدثون
باسم « شلز » (١٣) .

الفصل الثاني

قصور الملوك

على تل منخفض طويل ، على بعد خمسة أميال شرق أرجوس ، وعلى بعد ميل واحد في شمال البحر ، كان يقوم في القرن الرابع عشر قبل الميلاد قصر تيرينز الحصين . ويستطيع الإنسان أن يصل إلى خرائب هذا القصر بعد رحلة ممتعة من أرجوس أو نوبليا Nsuplia ، ويشهد هذه الخرائب التي تكاد تضيع معالمها بين حقول القمح والذرة الهادئة الساكنة . فإذا صعد السائح قليلاً فوق درجات حجرية باقية من أزمنة ما قبل التاريخ ، وقف أمام الجدران الضخمة السيكلوبية التي بنيت كما تقول الرواية اليونانية للأمير الأرجوسى بروتوس Proetus قبل حرب طروادة بمائتي عام(*) . ولقد كانت المدينة حتى في ذلك الزمن البعيد قديمة العهد ، فقد شاهدها كما تقول الرواية القديمة الماثورة البطل تيرينز بن أرجس Argus ذو المائة عين ، والعالم لا يزال في طفولته^(١٤) . وتضيف القصة إلى ذلك أن بروتوس أهدى القصر إلى برسوس الذى حكم تيرينز مع الملكة أندرمدا Andromeda الحمراء .

وكان ارتفاع الأسوار التي تحمى المدينة بين عشرين وخمسين قدماً ، وقد بلغ من سمكها أن كانت تحتوى في بعض المواضع على معارض واسعة ذات قباب وعمود فيها قطع حجرية ضخمة مركبة بعضها فوق بعض في وضع أفقى ،

(*) كان اليونانيون يصفون الصروح بأنها سيكلوبية إذا كانت حسب ما يتصوره خيالهم المولع بالأساطير لا يستطيع بناءها إلا المردة الجبابرة أمثال سيكلوس (أى صاحب العين المستديرة) الأعور الذى كان يكسح بكبير هباستوس Hephoeustus في براكين البحر المتوسط . ثم أصبح هذا الاسم يطلق في هندسة البناء على الأعمار التي تشاد بلا ملاط والتي تنتجت نحتاً غير متقن . ويملاً ما بينها بالحصى المخلوط بالطين . وتضيف الرواية إلى هذا أن بورتوس قد جاء بالبنائين المشهورين المسمين سيكلوس من لسيا Lycia .

ولا تزال بعض هذه الحجارة في أماكنها حتى الآن ، والكثير منها يبلغ طوله ست أقدام وعرضه ثلاثا وسمكه مثلها ، أما أصغرها فيقول پوستياس « إنه يصعب على اثنين من البغال أن يحركاها من أماكنها » (١٥) . وكان في داخل الأسوار ، وراء مدخل شيد على نمط كثير من مداخل الحصون فناء واسع مرصوف ، حوله طائفة من الأعمدة ، ومن حول هذه الأعمدة عدد كبير من الحجرات شبيهة بحجرات كنوسس ، تجتمع حول جوف فخم تبلغ سعته ألفا وثلاثمائة قدم مربعة ، أرضه مرصوفة بالأسمنت المطلي وسقفه مقام على أربعة عمد بينها موقد . وهنا وجد مبدأ جرت عليه العائر اليونانية يختلف عما كان متبعاً في كريت وهو فصل الجناح الذى تقيم فيه النساء عن حجرات الرجال . فقد كانت حجرة الملك وحجرة الملكة متجاورتين ولكنهما - على قدر ما نستطيع أن نستدل عليه من آثارهما - منفصلتان إحداهما عن الأخرى ، كل الانفصال ولا صلة بينهما من داخلهما . ولم يعثر شليمان من هذا القصر الحصين إلا على أساس الطابق الأرضى ، وقواعد الأعمدة ، وأجزاء من الجدران . وفي أسفل التل وجدت بقايا البيوت المقامة من الحجارة أو الآجر ، والقناطر ، وقطع من الفخار القديم . وفي هذا الموضع كانت مدينة تيريز في عهد ما قبل التاريخ تتقارب بيوتها لتحوى نفسها تحت أسوار القصر . ذلك أنه لا مفر لنا من أن نتصور بلاد اليونان في عصر البرنز تحيا حياة غير آمنة حول هذه القلاع الإقطاعية وفي داخلها .

وعلى بعد عشرة أميال في شمال هذه المدينة شاد برسبوس (إذا أردنا أن نصدق قول پوستياس) (١٦) مدينة ميسيني - أعظم عواصم اليونان قبل التاريخ . وهنا أيضاً نشأت حول قلعة منيعة مدينة من عدة قرى ، تضم عدداً من السكان النشيطين زراع ، وتجار ، وصناع ، وورقيق ، كانوا سعداء لأنهم ليس لهم تاريخ . وبعد ستائة عام من ذلك الوقت وصف هومر ميسيني بأنها « مدينة حسنة البناء واسعة الطرقات ، موفورة الذهب » (١٧) . ولقد أبقى الزمان

على أجزاء من هذه الجدران الضخمة رغم ما مر بها من مئات الأجيال التي تكفي لتخريب أقوى الصروح ، وإن ما بقي منها ليشهد برخص الأيدي العاملة وعدم اطمئنان الملوك على أنفسهم في تلك الأيام . وفي ركن من أركان السور يوجد باب الأسد الشهير ، وهناك فوق أسكفة ضخمة نحت على حجر مثلث الشكل أسدان كبيران أبلاهما الزمان وحطم رأسيهما ، وأبقى على جسميهما ليحرسا وهما صامتان ذلك المجد العتيق الزائل . وعلى الرابية القريبة من هذا الباب ترى أطلال القصر . وفي وسعنا أن نفعل هنا ما فعلناه في تيريز فنتبين فيها حجرة العرش ، وحجرات الخازن ، وحجرة النوم ، وحجرات الاستقبال . وهنا كانت في غابر الأيام أرضيات منقوشة ، ومداخل ذات عمد ، وجدران ذات مظلمات ، وسلام فخمة .

وقد كشف عمال سليمان ، بالقرب من باب الأسد في بقعة ضيقة تحيط بها دائرة من القطع الحجرية المسطحة ، عن تسعة عشر هيكلًا عظيمًا ، وعن عاديات قيمة ثمينة لا يسع من يراها إلا أن يغفر لهذا الهاوى العظام ظنه أن هذه الحضر هي الحجرات التي دفن فيها أبناء أريوس . كيف لا وقد وصف بوسنياس القبور الملكية بأنها « في أطلال ميسيني ؟ » (١٨) لقد كان من بين هذه الهياكل العظمية جماجم رجال عليها تيجان من الذهب ، وعلى عظام وجوهها أفنعة ذهبية ؛ وكان من بينها هياكل سيدات هن تيجان من الذهب كن يلبسها على رؤوسهن التي لم يبق لها وجود . ومن بين ما وجد في هذه المقابر آنية عليها رسوم جميلة ، وجفان من البرنز ، وكأس من فضة ، ورؤوس من الكهرمان والجمست ، وأدوات من المرمر والعاج والخزف ، وخناجر وسيوف مزخرفة ، ولوحة للعب شبيهة بالتي وجدت في كنوسس ، وكل ما يستطيع أن يتصوره الإنسان من الأدوات مصنوعة من الذهب الخالص - أختام وخواتم ، ودبايس ، ومشابك ، وأقداح ، وخرز وأساور ، ودروع ، وآنية للزينة ، وأثواب مزركشة بصفائح رقيقة من الذهب (١٩) وليس ثمة شك في أن هذه الجواهر جواهر ملوك . وأن هذه العظام عظام ملوك .

وقد كشف شليمان وغيره من العلماء في سفح التل المقابل للسفح الذي شيد عليه هذا الحصن ، تسعة قبور تختلف كل الاختلاف عن « القبور البثرية » . فإذا ما خرج الإنسان عن الطريق النازل من القلعة دخل عن يمينه دهليزاً على جانبيه جدران من الحجارة الكبيرة الجيدة القطع . وفي آخر الدهليز مدخل بسيط كان يزدان فيما مضى بعمودين أسطوانيين رفيعين من الرخام الأخضر محفوظين في المتحف البريطاني الآن ، ومن فوق العمودين أسكفة بسيطة من حجرين طول أحدهما ثلاثون قدماً ووزنه ١١٣ طناً . فإذا اجتاز السائح هذا المدخل ألقى نفسه تحت قبة ارتفاعها خمسون قدماً وقطرها خمسون ، وجدرانها من الحجارة المشورة ، مقواة بصفائح من البرنز نقش عليها الورد ، وتركب كل طبقة من الحجارة على ما تحتها حتى تسد أعلى الطبقات قمة القبة . وقد اعتقد شليمان أن هذا الصرح العجيب هو قبر أجمنون ، ولم يتردد في أن يصف قبة أخرى أصغر من هذه وجدت إلى جوارها وكشفتها زوجته بأنها قبر كليتمنسترا Clytaemnestra . وكانت كل القبور التي وجدت في ميسني والتي تشبه خلية النحل في كثرتها خالية ، لأن للصوص سبقوا علماء الآثار إليها بعدة قرون .

وهذه الآثار الدارسة شواهد باقية على حضارة كانت قديمة في أيام بركليز قدم شليمان إلينا نحن . ويرجع المؤرخون المحدثون تاريخ المقابر البثرية إلى عام ٦٠٠٠ ق . م (أى قبل التاريخ الذي يحدونه لأجمنون بأربعمئة عام) ، أما المقابر التي في الجهة الأخرى من التل فيرجع تاريخها في زعمهم إلى حوالي عام ١٤٥٠ ، ولكن تأريخ ما قبل التاريخ عملية بعيدة كل البعد عن الدقة . ولسنا نعرف كيف بدأت هذه الحضارة ، كما لا نعرف من هم أولئك الأقوام الذين شادوا مدائن في موضعي ميسيني وتيريز ، بل وفي مواضع اسبارطة ، وأمكلي Amyclae وإيجينا Aegina ، وإلبوزيس Eleusis ، وقيرونيا Chaeronia ، وأرثومينوس Orthomenos ودلني . وأكبر الظن أن هؤلاء الأقوام كانوا كثيرهم من الأمم قد أصبحوا خليطاً من

سلالات مختلفة ، ورثوا ثقافات متعددة ؛ فلقد كانت بلاد اليونان مختلطة دماء أهلها قبل غزو الدورين (١١٠٠ ق . م) اختلاط دماء سكان إنجلترا قبل فتح النورمان . ومبلغ ما نستطع أن نهتدى إليه بظننا أن الميسينيين كانوا يمتون بصلة القرابة العنصرية للفريجيين والكارين سكان آسية الصغرى ، وللمينويين سكان كريت (٢٠) . وللأسدين اللذين وجدا في ميسيني وجهان شهبان بأساد أرض النهرين ، ولعل هذه الفكرة القديمة قد انتقلت إلى هذه البلاد عن طريق آشور وفريجيا (٢٠) .

وتسمى الرواية التاريخية الميسينيين باسم « پلاسجى » Pelasgi (وربما كان معناه أهل البحر — پلاجوس Pelagos) ، وكانوا يصورونهم كأنهم آتون من تراقية وتساليا إلى أتكا والپلويونيز في زمن يبلغ من القدم حداً جعل اليونان يطلقون عليهم اسم السكان الأصليين ، أوتوكتونى Autochthonoi وقد صدق هيرودوت هذه القصة وقال إن الآلهة الأولمبية من أصل پلاسجى ولكنه « لا يستطيع أن يقول وهو واثق ماذا كانت لغة پلاسجى » (٢١) ولسنا نحن أكثر منه علماً بها .

وما من شك في أن أولئك الأوتوكتونيين قد قدموا في عصر متأخر إلى أرض كانت تزرع من أيام العصر الحجري الحديث ؛ ذلك أنه لا يوجد في بلد من بلاد العالم سكان أصليون . وقد غلبهم على أمر الزمان أقوام آخرون ، وشاهد ذلك أننا نجد في العصور المتأخرة من تاريخ الميسينيين حوالى عام ١٦٠٠ ق . م دلائل كثيرة على غزوة تجارية ثقافية ، إن لم تكن سياسية عسكرية ، لأرض الپلويونيز ، من حاصلات كريت أو من مهاجرها (٢٢) . وحثتنا في هذا القول أن قصور تيرينز وميسيني قد خططت وزينت على غرار القصور المينوية إذا استثنينا أقسام النساء في الأولى وهى التى لا نظير لها

في الثانية . يضاف إلى هذا أن الآنية والأنماط الفنية الكريتية وصلت إلى
إيجينا وكلسيس Chalcis وطيبة ، وأن سيدات ميسني وإلهاتها
قد قلدن الطراز الكريتي الساحر في الملابس والزينة ، وأن الفن الذي
كشف عنه في القبور البثرية المتأخرة مينوي بلاريب (٢٣) . وجلى أن
اتصال الميسنيين بحضارة أرقى من حضارتهم كان له فيهم أثر حافز قوى ،
وأنه هو الذي رفع ميسني إلى أرقى ما وصلت إليه حضارتها .

الفصل الثالث

الحضارة المسيحية

إن ما لدينا من آثار هذه الحضارة أقل من أن يمكننا من أن نصورها في صورة واضحة وضوح الحضارات التي تتكشف عنها خربات كريت أو أشعار هومر . ولكننا نستطيع أن نقول عنها إن الحياة في أرض اليونان القارية كانت أقرب إلى مرحلة الصيد من الحياة في كريت ، وإن ما نجده بين بقايا الآثار المسيحية من عظام الطياء ، والخنازير البرية ، والمعز ، والضأن ، والأرانب ، والثيران ، والخنازير - بل عظام السمك والأصداف البحرية - ليدل على أن شهوة الطعام بين أولئك القوم قد وصلت إلى المرحلة التي يصفها لنا هومر ، والتي لا تلامخ خصر الكريتيين النحيل ؛ وتكشف الآثار في أماكن متفرقة عما بين أساليب الحياة « القديمة » و« الحديثة » من تشابه عجيب ، فقد نجد سهاماً من الحجر الزجاجي إلى جانب مثقب برنزي أجوف كان يستعمل في عمل ثقوب في الحجارة للأوتاد (٢٤) .

أما الصناعة فلم تكن متقدمة تقدمها في كريت ، فلنا نجد في أرض اليونان القارية مراكز صناعية مثل جورنيا . كذلك كان نمو التجارة بطيئاً ، لأن البحار كانت عرضة لغارات القراصنة ، ومنهم المسيحيون أنفسهم . وكان ملوك ميسيني وتيرينز يستخدمون فناني كريتيين ليحفروا على الأواني والحوام ، ما كانوا يقومون به من أعمال القرصنة التي يفخرون بها (٢٥) . وكانوا يبنون مدنهم في داخل البلاد ليدفعوا عن أنفسهم شر غبرهم من القراصنة ، بعيدة عن البحر بعداً يمكنهم من أن يتقوا الغارات المفاجئة ،

وقريبة منه قرباً يمكنهم من الإسراع إلى سفنهم ، وكان موقع مدينتي تيرينز ، وميسيني - إلى الطريق الممتد من خليج أرجولي إلى برزخ كورنث يمكنهما من فرض إتاوات باهظة على التجار ومن القيام بغارات قرصنة عليهم من حين إلى حين . ولما رأت ميسيني أن كريت قد أثرت من اشتغالها بالتجارة المشروعة ، أدركت أن القرصنة ، كالضريبة الجمركية وليدتها المتحضرة ؛ قد تخنق التجارة خنقاً وتذشر الفاقة في أوسع نطاق ؛ ولذلك أصلحت أمرها وقبلت أن تتطور القرصنة فتصير تجارة . وما وافى عام ١٤٠٠ حتى بلغ أسطولها التجارى من القوة درجة استطاع بها أن يتنازع كريت سلطانها البحرى ؛ فرفضت أن تنقل بضائع ميسيني الذاهبة إلى إفريقيا عن طريق الجزيرة وأرسلتها إلى مصر مباشرة ؛ وقد يكون هذا العمل سبباً أو نتيجة لحرب انتهت بتدمير القلاع الكريتية .

ولم تكن الثروة التى أفادتها البلاد من هذه التجارة مصحوبة بثقافة تتناسب معها ، ونستطيع أن نتبينها فيما بقى من الآثار . ونعزو الروايات اليونانية إلى البلاسجيين فضل تعلم الحروف الهجائية من التجار الفينيقيين ، وقد وجدت في تيرينز وطيبة جرار عليها رموز لم تحل بعد ، ولكن لم تكشف قط ألواح من الصلصال ، أو نقوش ، أو وثائق ؛ وأكبر الظن أن ميسيني حين أرادت أن يتعلم أهلها الكتابة استخدمت فيها مواد سريعة العطب ، كما فعل الكريتيون في المرحلة الأخيرة من تاريخهم ، ولذلك لم يبق شيء من هذه المواد . ونهج الميسينيون في الفن نهج الكريتيين ، وقلدوهم فيه بأمانة جعلت علماء الآثار يظنون أنهم كانوا يأتون بكبار الفنانين من كريت ، ولكن يرد على هذا بأنه بعد أن اضمحل الفن الكريتى ازدهر فن التصوير أيما ازدهار في أرض اليونان ، فترى النقوش التى تزدان بها أطراف الجدران وحلياتها ترقى إلى المرتبة الأولى في الفن وتبقى إلى عصر ازدهار الحضارة اليونانية ؛ وكذلك يدل ما بقى من المظلمات على

إحساس قوى بالحياة والنشاط . وترى « النساء اللاتي في المقاصير » من كبريات السيدات اللاتي تزدان بأمثالهن دور التمثيل في هذه الأيام . وقد صنفن شعرهن وارتدين من الملابس ما يتفق مع أحسن طراز في الوقت الحاضر ؛ وهن أقرب إلى الحياة الحقة من « السيدات الراكبات في العربة » اللاتي خرجن للتنزه . في الحقول آخر النهار وتكلفن الجمود في ركبتهن . وغير من سيدات المقاصير منظر « صيد الخنازير البرية » وهو نقش من نقوش نيرنز . إن الخنزير والأزهار قد تحكمت في تصويرهما العرف إلى حد لا يصدق العقل ، واللون القرنفلي الغير المعقول قد شوته بقع أرجوانية وسوداء وزرقاء تتفق مع الخط المألوف وقتئذ ، والنصف الخلقى من الخنزير المدفع في جريه يندق تدرجياً حتى يشبه عذراء عالية الخذاءين تسقط من عريشة في قصرها . ولكن المطاردة رغم هذا مطاردة حقيقية ، والخنزير قد أعياه الطراد حتى وصل إلى درجة اليأس ، والكلاب تقفز بأقصى سرعتها في الهواء ؛ والرجل ، وهو أقوى الوحوش المفترسة عاطفة وأشدّها قسوة ، واقف متأهب يرمعه القاتل الفتاك^(٢٦) . ومن حق الإنسان أن يستدل من هذه الفاذج على ما كان يستمتع به المسيحيون من حياة نشطة ومن أجسام قوية ، وما كان لنسائهم من جمال وما كان في قصورهم من زينة واضحة جميلة .

وأرق فنون ميسيني كلها ما كان منها على المعادن ، ففيها بلغت بلاد اليونان ما بلغته كريت ، وبلغ من جرأتها في هذه الناحية أن اتبعت فيها أشكالها الخاصة وزينتها . وإذا لم يكن شليان قد عثربحق على عظام أجمنون ، فقد عثر على ما يعادل وزنها فضة وذهباً . عثر على حلى كثيرة الأنواع ؛ وبكميات تدل على الإسراف الشديد ، وعلى أزرار ذات رؤوس خليقة بأن تكون في ملابس الملوك ، وحجارة كريمة حفرت عليها مناظر صيد أو حرب أو قرصنة ؛ ورأس بقرة من الفضة البراقة لها قرنان وجهته من النضفة نقشت عليها ورود ، يتوقع الناظر إليها في أية لحظة من اللحظات أن تنحور خواراً

محزنا ؛ قد يفسره شليان ، وهو الذى لا يعدم وسيلة لتفسير كل ما يراه ، بأنه اسم ميسينى (٢٧) : وأجل ما وجد فى تيرينز وميسينى من آثار معدنية خنجران من البرنز مرصعان بمزيج من الذهب والفضة ، ومصفحان بالذهب المجلؤ المصقول ، وعليهما نقوش تمثل قطعاً بربية تطارد بظاً ، وأسأداً تطارد فهاداً أو تحارب أناسى (٢٩) . وأغرب من هذه الأفعنة الذهبية التى كانت على ما يظهر تغطى بها وجوه الموقى من الملوك . ويشبه أحد هذه الأفعنة وجه قطة ، وقد دفعت شليان شهامته إلى أن يعزو هذا الفناع لأهمنون لا لكليتمنسترا .

ولكن أروع روائع الفن الميسينى بلاجدال لم يعثر عليها فى تيرينز ولا فى ميسينى ، بل عثر عليها فى قبر فى فثيو Vaphio بالقرب من أسبارطة حيث كان أحد صغار الأمراء ينافس ملوك الشمال فى التفاخر والعظمة . وقد عثر فى ذلك المكان ، بين كنز آخر من الحلى ، على قدحين من الذهب المطروق بسيطين فى شكلهما ولكنهما بدل فى صنعهما كل ما يستطيع الفنان المحب لفنه العظيم أن يبذله فيه من الصبر والإتقان . وتشبه صناعة هذين القدحين أحسن الصناعة المينوية ، وقد أغرى ذلك بعض العلماء على أن يعزوهما إلى فنان كريتى عظيم بلغ من المزلة فى كريت ما بلغه تشلىنى عند الإيطاليين ، ولكننا يجوزنا أن نحرم الثقافة الميسينية أحسن ما خلفت من آثار . نعم إن موضوع النقوش التى على القدحين - وهو اقتناص ثور وترويضه - ييسلومن الموضوعات التى اختصت بها كريت ، ولكن كثرة هذا المنظر وأمثاله محفورة على الخواتم والأختام الميسينية ، أو مصورة على جدران القصور ، تشهد بأن مصارعة الثيران . كانت منتشرة فى أرض اليونان انتشارها فى الجزيرة . وقد نقش على أحد القدحين منظر الثور وقد صيد فى شبكة من الحبال السميقة ، وفتح فاه ومنخره وهو لا يكاد يستطيع التنفس من شدة

الغضب وفرط التعب ، وكلما حاول التخلص من الشرك ضاقت عليه حلقاته ؛ وعلى الجانب الآخر ثور ثان يقفز قفزة الرعب والهلع ، وثالث يهاجم غلاماً من الرعاة أمسكه بشجاعة نادرة من قرنيه . وعلى القدح الثاني يساق الثور المصيد ؛ فإذا أردنا القدح رأيناه قدرضى بقيود الحضارة ، وأنهمك على حد قول إيشنز في « حديث غرامى » مع بقرة^(٣١) . وقد مضت قرون كثيرة بعد ذلك العهد قبل أن يظهر مثل هذا الصنع البديع في بلاد اليونان .

ويوجد الميسينى نفسه ، كما توجد معظم مخلفات فنه ، في قبوره ، ذلك أنه كان يطوى موتاه ويدفنههم في جرار غير مريحة ، وقلما كان يحرق جثثهم كما كان يفعل بها في عصر الأبطال .

ويستدل من مخلفاته على أنه كان يؤمن بحياة من نوع ما في الدار الآخرة ، لأن أدوات ذات قيمة ونفع قد وجدت في قبوره . وفيما عدا هذا فإن الدين الميسينى ، على قدر ما تكشف لنا من مقدماته ، قوى الدلالة على أنه نشأ من الدين الكريتى أو كان قوى الصلة به ، ففيه - كما في كريت - نجد البلطة المزوجة ، والعمود المقدس ، والجمامة الإلهية ، وعبادة أم إلهة ممثلة في إله غلام لعله ولدها ؛ وهنا أيضاً نجد أرباباً صغاراً في صور أفاع . وقد بقيت الأم الإلهة في بلاد اليونان خلال كل ما حدث في دينها من تطور وتغيير ، فقد جاءت بعد ريا Rhea الكريتية ديمتر Demeter أم اليونان الحزينة ، وبعد ديمتر جاءت العذراء أم الإله . وإذا ما وقف الإنسان اليوم على أطلال ميسينى رأى في القرية الصغيرة القائمة أسفلها كنيسة مسيحية متواضعة ، لقد ولى عصر الأبهة والفخامة ولم تبق إلا البساطة والسلوى .

وازدهرت ميسينى بعد سقوط كنوسس كما لم تزدهر من قبل ، واستخدمت الثروة الطائلة المتزايدة التي كانت « لأسرة القبور البثرية » في تشييد القصور

الفخمة على تلال ميسيني وتيرينز ، واتخذ الفن الميسيني لنفسه طابعاً خاصاً ، واستولى على أسواق بحر إيجه ، ووصلت تجارة أمراء البلاد شرقاً إلى قبرص وسورية ، وجنوباً إلى مصر مارة بجزائر سكلديس ، وغرباً إلى أسبانيا مارة بإيطاليا ، وشمالاً إلى نهر الدانوب مخترقة بووثيا وتساليا ، ولم يقف في سبيلها إلا طروادة . وكما أن رومة قد استحوذت على حضارة اليونان ونشرتها في أنحاء العالم ، كذلك فعلت ميسيني فاستحوذت على ثقافة كريت المحتضرة ونشرت الطور الميسيني من أطوار تلك الحضارة في عالم البحر المتوسط كله

الفصل الرابع

طروادة

بين كريت وأرض اليونان ٢٢٠ جزيرة منشورة في بحر إيجه في دائرة حول ديلوس ، ومن أجل ذلك سميت السكليديس ، ومعظم هذه الجزائر صخرى قحط ، وهى بقايا قمم جبال كانت تمتد في أرض غرق بعضها تحت ماء البحر ، ولكن بعضها كان غنياً بالرخام أو المعادن إلى حد جعل أهله يعملون في استخراجهما ؛ وأنشأوا فيه حضارة على مر القرون القديمة قبل أن يطل علينا التاريخ اليونانى . وقد قامت المدرسة البريطانية في أثينة عام ١٨٩٦ بأعمال الحفر في أرض ميلوس Melos عند فيلاكوبي Phylakopi وعثرت على أدوات وأسلحة وفخار مشابهة شهاً يثير الدهشة لآثار العصور التى مرت بها الحضارة المينوية عصرأ عصرأ ؛ واستطاع الباحثون بفضل البحوث التى أجريت في عصرها من الجزائر أن يرسّموا صورة جزائر السكليديس في عصر ما قبل التاريخ تتفق في زمنها وصفاتها مع الصورة المستعادة التى رسمها المنقبون لكريت ، وكانت جزائر السكليديس ضيقة الرقعة لاتزيد مساحة أرضها كلها على ألف ميل مربع ، فكانت من هذه الناحية شبيهة ببلاد اليونان عاجزة عن الاجتماع في قوة سياسية موحدة ؛ ولم يكد يحل القرن السابع قبل الميلاد حتى خضعت هذه الجزائر الصغيرة في حكمها وفنوها ، بل خضع بعضها في لغته وكتابه ، لسيطرة الكريتيين ؛ ولما أن حل الطور الأخير من أطوار الحضارة الكريتية (١٤٠٠ - ١٢٠٠) انقطع ما تستورده تلك الجزائر من كريت ، وولت وجهها شطر ميسينى تستورد منها فخارها وأساليبها

وإذا اتجهنا نحو الشرق إلى جزائر أسبوراديس Sporades (أى المتفرقة) ألفينا في جزيرة رودس ثقافة أخرى في عصر ما قبل التاريخ من نوع الثقافات

الإيجية البسيطة ، أما في قبرص فإن رواسب النحاس الغنية التي اشتق منها اسم الجزيرة قد أفاءت عليها قدرأ من الثراء دام حتى عصر البرنز (٣٤٠٠ - ١٢٠٠) ، ولكن مصنوعاتها(*) ظلت مع ذلك خشنة غير مهذبة لا تمتاز في شيء إلى ما قبل السبطرة الكريتية . وكان أهلها الذين يغلب عليهم العنصر الآسيوي يستخدمون كتابة مقطعية شديدة الصلة بالكتابة المينوية ، ويعبدون إلهات تنحدر من إشتار السامية ، وهي التي قدر لها أن تصبح أفروديتي إلهة اليونان(٣٢) . ثم نمت صناعة المعادن في الجزيرة نمواً سريعاً بعد عام ١٦٠٠ ؛ وأخذت المناجم التي تمتلكها الحكومة الملكية تصدر النحاس إلى مصر ، وكريت ، وبلاد اليونان ؛ وكان المصنع المقام في إنكومب Enkomi يصنع الخناجر الذائعة الصيت ، وكان الفخرايون يبيعون آنتيمهم المستديرة في جميع البلاد الممتدة من مصر إلى طروادة . وفي القرن الأثخشاب من الغابات ، وأخذ سرو قبرص ينافس أرز لبنان . وفي القرن الثالث عشر أنشأ المستعمرون المسيحيون المستعمرات التي أضحت فيما بعد مدناً يونانية وهي پاثوس Pathos مدينة أفروديتي المقدسة ، وسسيتيوم Citium ، مسقط رأس الفيلسوف زينون ، وسلاميس القبرصية التي حط فيها صولون رحاله في أثناء تجواله ليُحل القانون محل القوضى .

وعبرت التجارة المسيحية كما عبر النفوذ المسيحي البحر من قبرص إلى سوريا وكاريا ، ومنهما انتقلا عن طريق الشواطئ والجزائر الآسيوية حتى وصلا إلى طروادة . وهناك كشف شليمان ودوريفلد على تل تفصله عن البحر ثلاثة أميال عن سبع مدن كل واحد فوق الأخرى كأنما كان لطرودة تسع حيوات .

١ - فكان في الطبقة الدنيا بقايا قرية من العصر الحجري الحديث يصل تاريخها إلى عام ٣٠٠٠ ق . م ، وقد وجدت فيها جدران من الحجارة غير

(*) ثابر على جمعها القائد دي سنولا di Cesnola ، هي الآن عذلة في المتحف الفن بنيويورك .

المنحوتة بينها طبقات من الطين ، كما وجدت مواقع حلزونية ، وقطع من العاج المشغول ، وأدوات من الحجر الزجاجي ، وقطع من الفخار المصقول باليد .

٢- ووجدت فوق هذه الآثار أنقاض المدينة الثانية التي اعتقد شليمان أنها طروادة هومر . وكانت أسوارها المحيطة بها مقامة من حجارة ضخمة كأسوار تيرينز وميسيني ، وكان في أماكن متفرقة منها حصون وفي أركانها أبواب ضخمة مزدوجة لا يزال اثنان منها باقين حتى الآن . وهناك أيضاً بيوت باقية تعلو نحو أربع أقدام ، وقد بنيت من الآجر والخشب فوق أساس من الحجارة . ويستدل مما عثر عليه فيها من فخار مطلي بطلاء أحمر ، مصنوع على العجلة ولكنه خشن فج ، على أن هذه المدينة كانت قائمة في الفترة المحصورة بين ٢٤٠٠ ، ١٩٠٠ على وجه التقريب . وقد حل البرنز فيها محل الحجر في صنع الأدوات والأسلحة ، وكثرت فيها الحلي ، ولكن التماثيل الصغيرة قبيحة المنظر بدائية الصنع . ويتضح من مخلفات هذه المدينة الثانية على أن النار قد دمرتها ، فأثار النار كثيرة فيها كثرة اقتنع معها شليمان بأن هذا كان من عمل يونانيين أجمنون .

(٣ - ٥) ووجدت من فوق « المدينة المحروقة » بقايا ثلاث دساكر متتالية صغيرة وفقيرة ، لا قيمة لها من الناحية الأثرية .

٦- وقامت حوالي ١٦٠٠ ق . م مدينة أخرى على هذا التل التاريخي . وقد دفعت السرعة والحماسة شليمان إلى أن يخلط عاديات هذه الطبقة بعاديات الطبقة الثانية ، وأن يصف المدينة السادسة بأنها « مستقر ليدي » (٣٣) لا خطر له ، ولكن دوريفلد واصل الحفر بعد موت شليمان مستعيناً إلى وقت ما بمال شليمان نفسه (٣٤) حتى كشف عن مدينة أكبر كثيراً من المدينة الثانية مزدانة بالمباني الكبيرة مقامة من حجارة مسواة ، يحيط بها سور يرتفع فوق الأرض ثلاثين قدماً بقيت له ثلاثة من أبوابه . ووجدت في أنقاض

المدينة مزهريات ذات لون واحد أدق صنفاً من المزهريات التي وصفناها من قبل ، كما وجدت فيها آنية كآنية أوركنوس Orchomenos المينية Minyan ، وقطع من الفخار شبيهة بما وجد في ميسيني إلى حد اعتقد معه دوريفلد أنها مستوردة من هذه المدينة الثانية وأنها لذلك معاصرة لأسرة القبور البثرية (١٤٠٠ - ١٢٠٠ ق . م) . ويرى معظم العلماء أن هذه المدينة السادسة هي طروادة هومر مستندين إلى هذه الآثار وإلى عوامل أخرى أقل منها ثباتاً واستقراراً^(*)(٣٥) . ويخصون بها « كنز بريام » الذي ظن شليمان أنه عثر عليه في المدينة الثانية ، والملكون من ستة أساور ، وطاسين ، وتاجين ، وعصابتين للرأس ، وستين قرطاً و ٨٧٠٠ قطعة أخرى كلها من الذهب^(٣٦) . ويؤكد لنا المؤرخون أن المدينة الثانية قد دمرتها النار أيضاً حوالي عام ١٢٠٠ ق . م ، ويحدد المؤرخون اليونان حصار طروادة بالفترة واقعة بين : ١١٩٤ ، ١١٨٤ ق . م^(**) .

وبعد ، فن هم الطرواديون ؟ تذكر لإحدى البرديات المصرية اسم اللردنيويين Dardenui بين أحلاف الحثيين في واقعة قادش (١٢٨٧) ؛ ويحتمل أن يكون هؤلاء هم أسلاف اللردنويين Dardenoï وهم في لغة هومر الطرواديون أنفسهم^(٣٧) . والراجع أن هؤلاء الأقوام ينتمون إلى أصل

(*) يعتقد الدكتور كارل بلجن Dr. Carl Blegen مدير أعمال الحفر التي تقم بها بعثة جامعة سنستاتي في طروادة (١٩٣١ وما بعدها) على أن مدينة طروادة السادسة قد دمرت حوالي عام ١٣٠٠ ويرجح أن ذلك كله كان بفعل زلزال ، كما يعتقد أن المدينة السابعة قامت فوق أنقاض هذه المدينة . وهو يسمي هذه المدينة السابعة طروادة بريام . أما دوريفلد فيسمى هذه المدينة طروادة رقم ٦ ب ، انظر ماجاه بصحيفة الدراسات اليونانية *Journal of Hellenic Studies* العدد السادس والخمسين ص ١٥٦ .

(**) كانت طروادة السابعة مستقراً صغيراً غير محصن قامت في ذلك المكان حتى أنشأ (٨) الإسكندر الأكبر في عام ٣٣٤ طروادة الثامنة تخليداً لذكوى هومر . (٩) وشاد الرومان في بداية تاريخ المسيحي إليوم أو طروادة الحديثة *Novum Ilium* التي بقيت إلى القرن الخامس بعد الميلاد .

بلقاني ، وأنهم عبروا مضيق الهلسنت في القرن السادس عشر مع أبناء عمومهم
الفريجين واستقروا في وادي نهر اسكندر Scamander الأذني (٢٨) .
أما هيرودوت فيوحد بين الطرواديين والتبكرين Teucrians وهؤلاء في
رأى اسطرابون أقوام من كريت استقروا في الصقع الذي بنيت فيه طروادة
فيما بعد(*) ، ولعل استقرارهم في ذلك المكان كان بعد سقوط كنوسس (٤٠).
ولقد كان لكريت وطروادة جميعاً جبل مقدس يسمى جبل أيدا « جبل
أيدا ذا الفوارات الكثيرة » الذي يذكره هومر وتينسن Tnnyson . ولقد
تعرض هذا الإقليم في أوقات مختلفة إلى مؤثرات سياسية وجنسية من
أرض الحثيين الواقعة خلفه . وتدل أعمال الحفر في جملتها على وجود
حضارة بعضها مينيوى ، وبعضها ميسيني ، وبعضها أسيوى ، وبعضها
دانوبى Danubian .

ويصف هومر الطرواديين بأنهم كانوا يتكلمون لغة اليونان ويعبدون
آلهتهم ، ولكن اليونان المتأخرين عن عصر هومر كانوا يقولون إن طروادة
مدينة أسيوية ، وإن حصارها الذائع الصيت هو أول الأحداث المعروفة
في النزاع القائم بين الساميين والآريين ، وبين الشرق والغرب (٤١) .

وأهم من مظهر أهلها وجنسهم موقع المدينة المنيع قرب مدخل الهلسنت
والأراضى الغنية المحيطة بالبحر الأسود . لقد كان هذا الممر الضيق في التاريخ
كله ميدان القتال بين الإمبراطوريات ، وكان حصار طروادة هو معركة غليبولي

(*) ترجع الرواية اليونانية اسم طروادة إلى البطل الإيونى تروس Tros والدإيلس
Ius والدلومدون Leomedon والدبريام (٢٩) . وهذا منشأ الأسماء المختلفة التي تطلق على
المدينة : ترواس Troas إليوس Ilios إليون Ilion اليوم Ilium . والبطل الأيونى أو الإيونى
شخص خرافي في أغلب الظن ، تمزج إليه جماعة سياسية أو اجتماعية أصلها واسمها . فالدردانيون
مثلا يمتقنون أو يدعون أنهم من دردانوس بن زيوس ، ويعزو الدوريون أصلهم إلى دورس
Dorus والأيونيون إلى أيون وهلم جرا .

الحديثة نشبت في عام ١١٩٤ ق . م . وكان السهل القائمة عليه بجلى درجة لا بأس به من الحصب ، وكانت الأرض المجاورة له من الشرق غنية بالمعادن الثمينة ؛ ولكن هذه الثروة وحدها لا يمكن أن تكون سبب ثراء طروادة أو هجمات اليونان عليها . إن أهم من هذا في رأينا أن موقع المدينة كان يمكنها من فرض المكوس على السفن المارة بالهلسنت ، وكانت هي في الوقت عينه بعيدة عن البحر بعداً يجعلها في مأمن من الهجمات البحرية^(٤٣) . وربما كان هذا السبب لا وجه هلن Helen الجميل هو الذي جردت من أجله ألف سفينة للهجوم على إليوم . وثمة رأى آخر يفسر ثراء طروادة - وربما كان أرجح من الرأى الأول - وهو أن التيارات المائية والرياح الجنوبية في مضيق الهلسنت قد جعلت التجار يفرغون بضائعهم في طروادة ويتقلونها برأ إلى داخل البلاد ، وأن طروادة قد خصلت من المكوس التي تتقاضاها نظير قيامها بهذا العمل على ما تجمع لها من قوة^(٤٤) . ومهما يكن سبب هذا الثراء فإن تجارة المدينة نمت نمواً سريعاً كما يستدل على ذلك من اختلاف المصادر التي تنتمى إليها آثارها . فقد كان يأتي إليها من الجزء الجنوبي من بحر إيجه النحاس ، وزيت الزيتون ، والخمر ، والفخار ؛ ومن بلاد الدانوب وتراقية : الفخار ، والكهرمان ، والحليل ، والسيوف ؛ ومن بلاد الصين النائية أشياء نادرة كحجر اليشب^(٤٥) . وكانت طروادة تستورد من داخل البلاد المحيطة بها خشباً ، وفضة ، وذهباً ، وحمرا برية ، وتصلرها إلى الخارج .

وكان أهل طروادة « مروضو الخيول » المقيمون في زهو وخيلاء داخل أسوارهم ، يسيطرون على ما حولهم من البلاد ويفرضون المكوس على تجارتها البرية والبحرية .

والصورة التي تطالعنا في الإلياذة عن إريام وبيته هي صورة العظمة والعطف الأبوي التي تطالعنا في أسفار التوراة . فالملك كثير الزوجات ، ولم يكن منشأ هذه الكثرة حب المتعة بل كان منشؤها ما يشعر به من تبعه تفرض

عليه أن يستمر في إنجاب الأبناء وزيادة عددهم . أما أبناء الملك فيقتصرون على زوجة واحدة ، وكلهم حسنو الأخلاق مستقيمون - إذا استثنينا بطبيعة الحال باريس المرح الذي كان بعيداً عن حسن الخلق بعد ألقبيادس . وإن هكتور Hector ، وهلنوس Helenus ، وترويلوس Troilus لأجلد بالحلب من أجمنون المتقلب ، وأديسيوس Odysseus الغدار ، وأخيل المشاكس ، وأندروماك Andromache وبلكسينا Polyxena لا تقلان سحراً وفتنة عن هيلين وإفجيذا Iphigenia ؛ وهكيا أحسن قليلاً من كليتمسترا . والطرواديون في جملتهم كما يصورهم أعداؤهم يبدون في نظرنا أقل خداعاً ، وأكثر وفاء ، وأحسن تهدياً ، من اليونان الذين غلبوهم على أمرهم . ولقد أحس الفاتحون أنفسهم بهذا التفوق في أواخر أيامهم ؛ ولم يبخل هومر على أهل طروادة بكلمة طيبة ؛ ولم يترك سافو Sapho ولا يورپديز شكاً في الناحية التي يريان أنها خبيثة بعطفهما وإعجابهما .

ولقد كان من دواعي الأسف أن يعترض هذا الشعب طريق بلاد اليونان المتوسعة التي جاءت ، رغم عيوبها الكثيرة ، إلى هذا الإقليم وإلى غيره من أقاليم البحر المتوسط في آخر الأمر بحضارة أرق من كل الحضارات التي عرفها من قبل .